الجنسانية والسياسة الجنسية
الصراعات والتناقضات أمام نساء الشرق الأوسط في الحقبة المعاصرة

إيفلين عقاد

يبدو أن للجنسانية إمكانية ثورية على درجة من القوة بحيث أن العديد من السياسيين ـ رجالا ونساء ـ يشعرون بالخوف منها. لذلك، يفضلون إنكار أهميتها من خلال تقديم الحجج على أنها ليست محورية كالعوامل الأخرى، مثل المحددات الاقتصادية والسياسية التي يمكن بسهولة تمييزها كعناصر رئيسة في إنتاج الثورة : التفاوت الطبقي، والجوع، والفقر، والافتقار إلى فرص العمل. في هذه المقالة، أود أن أقدم البراهين على أن الجنسانية أكثر محورية بكثير مما ظن سابقا بالنسبة للمشكلات الاجتماعية والسياسية في الشرق الأوسط، وأنه إذا لم تدمج الثورة الجنسية ضمن الثورة السياسية فلن يكون هناك تحول حقيقي في العلاقات الاجتماعية.

أعني بالثورة الجنسية تلك التي تبدأ على مستوى الحياة الشخصية، مع تحول في مواقف الفرد تجاه الزوج/الزوجة، والعائلة، والجنسانية، والمجتمع، وعلى وجه التخصيص، تحول في الصلات، لاسيما الجنسية، والعلاقات التقليدية (مثل الصراع على السلطة، والغيرة، والملكية). التغيير أمر جوهري على مستوى العلاقة١٩٨٣)، انبثق نزاع رئيسي بين النساء اللاتي يعتقدن أن مسألة الجنسانية والهيمنة الذكورية هي القضية المحورية، وبين اللاتي يؤمن بأن الطبقية والاستعمار هما المسألة المحورية. وزعمت الماركسيات غالبا، عند التحدث باسم كافة نساء العالم الثالث، أن القضايا الاقتصادية ـ مثل الغذاء والمأوى ـ أكثر أهمية بكثير من الجنس. كما اتهمن السحاقيات الأمريكيات في المؤتمر بالمبالغة في التشديد على الجنس، خصوصا السحاق. لقد شعرت وأنا أستمع لكل ذلك بأن حججهن المقدمة كانت (بطركية) جدا، وغير ذات صلة إلى حد ما: أولا، لأن الجنس يمثل واحدة من الحاجات الأساسية ـ مثل الطعام والنوم ـ في أية ثقافة، ثانيا، لأنه لم يأت أحد على ذكر الحاجات الروحية أو السيكولوجية، أو كلتيهما معا، للحب، والعاطفة، والرقة، والحنان، التي تتصل بشكل حميمي مع الجنسانية التي يشعر بها الناس في كل الثقافات. إن الزعم بأن بعض النساء يعشن بدون تلبية هذه الحاجات بسبب العوامل الاقتصادية الأكثر إلحاحا، لا يبدو أنه جائر فقط، بل ممارسة لا يستطيع القيام بها سوى المفكرين والمثقفين. وثالثا، أعتقد، انطلاقا من أبحاثي وتحليلاتي، أن الجنسانية والتأهيل الاجتماعي للدور الجنسي يرتبطان ارتباطا وثيقا بالصراعات الوطنية والحرب المستمرة في لبنان. أجريت خلال السنوات الخمس الماضية دراسة بحثية واسعة عبر الشرق الأوسط، قابلت خلالها النساء في المناطق الريفية والحضرية واستفسرت منهن عن الجنسانية، والعلاقات مع١٩٧٨، الرجال (الأزواج، الأشقاء، الأبناء)، والعلاقات مع النساء الأخريات، والظروف الاجتماعية لحياتهن. كما حضرت مؤتمر (ما هي الحركة النسوية بالنسبة للمغرب) (تونس، النسوية، والوطنية، وعلى هامش ذلك، الجنسانية (النشاط الجنسي)، وقمت بتدريس مقرر تعليمي حول دور المرأة العربية في كلية بيروت الجامعية عام ١٩٨٥، حيث عشت الحرب في لبنان تلك السنة (والسنوات التي سبقتها). لقد ساعدني عملي في دراستي البحثية، والتدريس، والمناقشات، وأفكاري الخاصة حول هذه القضايا على توضيح وجهات النظر التي أتبناها فيما يتعلق بدور الحركة النسوية في الصراعات الوطنية، ومحورية الجنسانية بالنسبة للعلاقات الاجتماعية والسياسية لجماعات برمتها من الناس. وفي هذه المقالة، أود أن أقترح أهمية الجنسانية والعلاقات الجنسية والهيمنة الذكرية بالنسبة للصراعات الوطنية التي تحدث في الشرق الأوسط. قبل كل شيء، وعلى العكس من وجهات نظر العديد من المثقفين والمفكرين والسياسيين (رجالا ونساء) المعنيين في الولايات المتحدة أو الشرق الأوسط أو كليهما معا، تشير المقابلات التي أجريتها مع النساء في الأرياف والمدن إلى أن الجنسانية تشكل هما مقلقا واهتماما بالغ الأهمية بالنسبة للنساء. وفي الحقيقة فإن النساء من أفقر المستويات الاجتماعية هن اللاتي كن أكثر صراحة وجرأة في التحدث عن موضوع الجنس، والحب، والعلاقات مع الزوج والأسرة، وكن أكثر معرفة، على العكس أيضا من رأي بعض المثقفين والمفكرين، بالحاجة للتغيير في هذه المجالات من حياتهن. ولربما يتمتعن بهذه الجرأة والصراحة في التعبير لأنهن لم يقمن بتفسير وتأويل وتحليل حاجاتهن انطلاقا من إطار أساليب التفكير البطركية (الماركسية، والوطنية، والرأسمالية). فعلى سبيل المثال، قابلت في وهران في الجزائر (١٩٨٤) مجموعة من الخادمات في الفندق الذي أقمت فيه، وتبين لي أن الأغلبية الساحقة منهن يعشن في بيئة تخضعهن لنظام تعدد الزوجات وتجبرهن على ارتداء الحجاب عند الخروج من المنزل. وعبر معظمهن عن الغضب تجاه كلا التقليدين ـ تعدد الزوجات والحجاب ـ ورغبن لبناتهن أن يعشن في ظروف مختلفة. وعلى نحو مشابه، قمت بزيارة للمستشفيات في الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧٨، وأجريت مقابلات مع النساء اللاتي يعشن في الواحات والمناطق النائية. وعبرت هؤلاء أيضا عن غضبهن على ظروف حياتهن ـ اضطرارهن إلى إنجاب الأطفال كل سنة تحت تهديد الطلاق، أو القبول بزواج الأزواج من نساء أصغر عمرا، إضافة إلى ارتداء (البرقع) (غطاء جلدي للوجه يشبه القناع ويترك علامات أرجوانية ـ زرقاء اللون عليه عند التعرق). ثانيا، بدا لي واضحا أنه نظرا للأسلوب الذي تعاملت من خلاله المثقفات والمفكرات السياسيات مع الجنسانية، على الأقل في المؤتمرات التي حضرتها، فإن القضايا المتعلقة بها تظل أكثر محورية بمراحل مما يرغب أي منهن بالاعتراف به. ففي مؤتمر (ما هي النسوية بالنسبة للمغرب) (١٩٨٥)، في نادي طاهر في تونس، وفي مؤتمر (الفوارق المشتركة) في اليتوي، قسم موضوع الجنسانية، بكل تشعباته، النساء وخلق قدرا هائلا من التوتر. في تونس، تعرضت النساء اللاتي اخترن التعبير عن آرائهن جهارا ودون تحفظ عن الجنسانية، للنبذ من قبل الأغلبية الساحقة من ناشطات الحركة النسوية المثقفات. إذ قررت إحدى أكثر النساء انفتاحا وصراحة حول الموضوع مغادرة البلد لأنها شعرت بأنها تعرضت لإساءة الفهم والرفض حتى من قبل الحركة النسوية. وطلب مني بعض النساء أن أغلق جهاز التسجيل حين تحدثن عن الجنسانية، وانفجرت أخريات بالبكاء حين تحدثن عن التجارب الحميمة في حياتهن. وتساءلت متعجبة وأنا أستمع وأتحدث مع النساء عن السبب وراء ظهور كل هذا الألم عند تذكر الأحداث الماضية المرتبطة بالجنسانية في حياتهن، ومع ذلك يبدين كل هذه المقاومة والممانعة والإنكار للتحليل السياسي للجنسانية. وعلى نحو مشابه في مؤتمر إلينوي، هاجمت النساء بضراوة بعضهن بعضا بسبب الاختلاف حول قضايا الجنسانية وموقعها في حياة المرأة في العالم الثالث. قدمت إحدى المشاركات في المؤتمر في تونس نوعا من التحليل لمركزانية الجنسانية، لكن أظهرت رفضها للجانب السياسي. ولسوء الحظ، شعرت نتيجة تحليلها واستعدادها للتحدث في مثل هذه البيئة، بأنها مضطرة لمغادرة بلدها. وحين كتبت إليها، وسألت عما إذا كانت تريد ذكر اسمها، أو تركه مجهولا، أجابت: (أرجوك لا تبقني مجهولة لأن ذلك يشكل عبئا ثقيلا يقتلني ببطء. لكن أي اسم استعمل؟ إلهام بنت ميلاد ـ اسم أبي ـ ؟ أم بنت بوسو ـ اسم أمي ـ ؟ أم بنت غديفه ـ اسم زوجي ـ؟ أم مجرد الكنية التي لا تعد كافية؟ كيف يمكن للمرأة أن تحل هذه المشكلة؟). بدأت إلهام خطابها أمام المؤتمر بمناقشة السبب الذي جعلها تقرر تمزيق حجاب الصمت المخيم على حالتها، للتخلص من (الرقابة الذاتية) (وهو تعبير اتخذ معنى دلاليا بالغ الأهمية حين عشت في تونس، وشهدت طريقته في قتل الإبداع والحرية لدى عدة نساء أصبحت قريبة منهن)، بحيث لا تصبح عدوا لذاتها. شعرت إلهام بأن صمت ناشطات الحركة النسوية في تونس قد خيم على ثلاثة مجالات: ١) الجسد الأنثوي، ٢) علاقات المرأة الشخصية، ٣) الهوية الجنسية. وأوحت بأن المسكوت عنه يشمل موضوع العادة الشهرية، والعادة السرية، والعذرية، والمتعة الجنسية على وجه العموم، إضافة إلى الإجهاض، والولادة، والجسد الأنثوي ككل. وتلت شعرا كتبته حول العادة الشهرية بالفرنسية والعربية ـ ملاحظة كيف كان من الأصعب التعبير عنها بالعربية. المقاطع التالية مقتطفة من خطابها وتعطي فكرة عن تحليلها: خرافة العذرية هي حماقة بالغة.. الطقس يحدث في الألم.. كأنما هي فقاعة غضة لتنفجر. ومن أجل هذه الفقاعة، يحدث هذا الفراغ، هذا الخواء، من أجلها تلقن المرأة كيف تكره، وتخجل، وتقرف من جسدها، وتخاف من نشاطها الجنسي.. المتعة الجنسية الأولى التي تعرفها البنت هي العادة السرية.. في بعض العائلات تسمى (فعل الشر). نحن نعيش في وضع يهمل فيه الجسد. في مثل هذا السياق، كيف يمكن للمرأة أن تحب جسدها؟ كيف تتعلم معرفة رغباتها، بل أن تدعها تستثار؟ كيف يمكن للمتعة الجنسية، المدانة طيلة هذه المدة، أن تمارس بحرية فقط لأن مؤسسة وافقت عليها على أساس وجود شريك؟ .. الطفلة تتعلم ربط المتعة باستحقاق اللوم. وبدلا من أن يكون الجسد باعثا للذة، يصبح عدوا يسبب الألم.. كيف يمكن للجسد الذي لا يعلم أبدا كيف يحب أو يتكلم، أن ينمو في علاقة جنسية متناغمة؟.. المسكوت عنه لا يشمل فقط موضوع الجسد الأنثوي وحده ولكن أيضا كل شيء يقارب عموما العلاقات الحميمة التي تتنقل باستمرار بين الحلم والحقيقة، بين الحب والكره.. لم تسقط دموعي على الخد حين تتعرض جارتي للضرب؟ ولم أشعر بالإذلال والمهانة بشكل شخصي؟ الألم الذي تعانيه في حياتها يؤثر فيّ لعدة أسباب. حياة هذه المرأة مثل العدسة المكبرة التي تعكس أمامي صورة مضخمة لوضعي ذاته.. الحصول على احترام الآخرين يمثل كفاحا مستمرا بالنسبة للنساء. استعباد النساء الأخريات يضع قيودا على تطوري الخاص.. لكن فوق كل شيء، تذكرني حياتها بمعاناة امرأة أخرى، شهدته زمنا طويلا .. معاناة أمي.. أثارت إلهام أيضا مشكلة هجوم النساء بعضهن على بعض عند مناقشة قضايا الجنسانية. ووجدت ذلك وثيق الصلة بالموضوع لأنني واجهت ردود فعل مشابهة من المثقفات الناشطات في الحركة النسوية. فالخوف والرقابة الذاتية عاملان رئيسان في منع المرأة من الرغبة في استكشاف وسبر هذه القضايا. إذ إن موضوع الجنسانية شديد القرب من المنزل وحياة المرء الشخصية. في هذا المؤتمر، حين أثير الموضوع، أطلقت النساء شائعات ضد بعضهن البعض، فيما يتعلق بالجنسانية الشخصية والممارسات الجنسية، وأدى ذلك بالتالي إلى توسيع ومفاقمة الضيق والانزعاج والتوتر. ومثلما اقترحت إلهام قائلة: الضغينة بين النساء تعبر عن نفسها بطرائق متعددة.. النسوية وإطلاق الإشاعات يبدوان متناقضين. لكنهما ليسا كذلك لسوء الحظ. لقد كنت هدفا لحملة من الشائعات من قبل الناشطات النسويات في السنة الماضية بعد أن تحدثت عن (الأنثوية والخصوبة). واتهمني هؤلاء بأنني عاهرة، ومطلقة، وسحاقية، وسارقة للأزواج، وفضيحة، لأنني رفضت الأمومة! وأود أن أؤكد كيفية ارتباط كل هذه الاتهامات بالنشاط الجنسي. في حين أن الهدف من نشر الإشاعات هو التخفيف من حدة ما هو مزعج، وجعل المرء يشعر بمزيد من الأمان، إلا أنه يعبر أيضا عن القلق من التهميش، ويحاول تعطيل فعالية الإحساس باستحقاق اللوم.. وبغض النظر عن محاولة قمع الآخر، بسبب عدم قدرة المرء على تحرير نفسه، فإن لنشر الإشاعات عاقبتين اثنتين: ١) حرمان المرأة التي تطلقها من إشباع رغباتها الخاصة، وبالتالي معرفة ذاتها بصورة عميقة، ٢) تدمير المرأة التي تطلقها، خصوصا حين تضيف إليها النية السيئة، والشعور ـ المنتشر بصورة أو بأخرى ـ بأنها قدمت تنازلا خطيرا للمجتمع، وللأم.. نشر الإشاعات والعداء بين النساء يزعج اللاتي يؤيدن الحب الأنثوي غير المشروط. لكن الاحتجاجات التي يبدينها لا تصل إلى حد الدفاع عن/ أو حتى التلفظ بكلمة (شذوذ جنسي). فهذا قد يستدعي الكثير من الدمار والخراب. إنه نقطة اللاعودة، سبيل لا يستطيع المجتمع أن يتسامح معه. على المستوى الشخصي، تعتبر العودة إلى قصة الحب مع الأم مجازفة خطرة. الشذوذ الجنسي مدان أيضا من قبل المجتمع لأنه يزعزع أسسه. ولا يقتصر الأمر على كونه غير منتج ـ فيما يتعلق بالنسل، ولذلك يهدد بقاء المجتمع ـ بل لأنه يزعزع أساس الرأسمالية حيث تقدر قيمة الإنتاج تقديرا عاليا. وفوق كل شيء، يؤكد الحق بالمتعة المجردة، وهذا مفهوم يثير الريبة، لأنه فوضوي في الجوهر.. ألا يتصف العالم الثالث بتشوش خطر يخلط بين الفردية والفردانية، من خلال بنية الواجب الأشد قمعا؟..

قضية أخرى أود تناولها هي الغيرة في سياق الحب. المرأة التي تثير شعور الغيرة هي تلك التي نشعر بأنها تسرق شيئا منا، مثلما سرقت أمنا منا كينونتنا العميقة، جسدنا. وكلما تعرضت حياة المرء للقمع، بدون إشباع رغباته، كلما تعاظم شعوره (أو شعورها) بالغيرة. وفي هذا السياق، يتعرض الحب والمتعة بالضرورة للتهديد إذا تمت المشاركة فيهما. وحين تعطي امرأة إلى أخرى، تشعر بأنها خسرت شيئا تملكه. الغيرة أيضا تتزايد حين يثير الشخص الذي نحسده حبنا وإعجابنا.. وهي تعبير عن فقدان الثقة بالنفس.. ويمكن للمرء أن يفهم لماذا يلتزم المثقفون والمفكرون الصمت في هذا الميدان: من الصعب على التحليل والتفكير المنطقي أن يشكلا وقاية تحمي من الغيرة.. كان موضوع علاقات المرأة الشخصية مشحونا بالمعنى. إذ حمل إلى السطح الكثير من القلق الذي شعرت به في علاقاتي التي أقمتها مع مجموعة من بعض المشاركات في المؤتمر. ولأنني أثرت القضايا التي تربط الجنسانية بالحرب، أصبحت هدفا لحملة إشاعات أطلقتها بعض النساء في تلك المجموعة، كأنما لجعل ما أقوله يبدو أقل أهمية أو حتى مثيرا للشبهة. فقد اتهمت بالعمالة للمخابرات المركزية، والانغماس في طقوس عربيدة، وسرقة أصدقاء وخلان النساء اللاتي أعرفهن. لكن خطاب إلهام جعلني أشعر بأنني أقل عزلة، وفسر لي بعض المشكلات التي تواجهنا كنساء التزمنا بالوطنية التزامنا بالنسوية والحرية الجنسية. يستحق خطاب إلهام الذكر والتنويه لأسباب عديدة. ومن المهم ملاحظة أنه لم يجر أي نقاش للقضايا التي أثارتها في المؤتمر. وبدلا من التفكير بما تناولته من نقاط، تمحور الحديث حول قضايا اللغة والقومية العربية. ونادراً ما جرت أية مقاربة للجنسانية على الرغم من أن المؤتمر تقرر له أن يركز على (ما هي النسوية بالنسبة للمغرب؟). واحدة من النساء فقط تبنت مقاربة صريحة وشخصية، وحين قدمت شهادتها حول ما قادها إلى النسوية، فعلت ذلك في جو مشحون ساده قلق بالغ. فجزء من الضيق والانزعاج سببه الانشقاق بين النساء أنفسهن، والبحث عن الهوية، والإدراك المتزامن للتوترات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية التي خلقتها الأزمة التي يعيشها العالم العربي.

قصيدتان

محمد النصار

ازدواج

في غفلة من يد
يجرفها نهر
تلسعه سياط الريح
كانت ذرات الرمل
تتساقط على كلماتي
ناثرة خفتها الفرحة
قرب ياس
لا تنكره الحياة على الغريب
بينما
كان مهرج اعمى
وحيداً على الساحل الخالي
يقف
مستبدلاً قلبه بالطبل-

بسط
ففيها تعزو الكلمات
مجمل هروباتها
إلى سقوط زوايا التلفت
في معمان السيرك
حيث يدعك الموت خلاياك
واعني مراياه
لان الضجر
شقيق الايام
المعفو ابدا
من الالم
أما المكترثون
فهم ليسوا متلصصي الافق
ولا املهم المترنح عند ابواب السلام
والدليل
إن سلام كاظم وانا
نتبادل
في ليلة حزيرانية هناك
نخب صانع المطر
هاربين من مطرقة صدئة
حولتها المعاجم والمكائن
إلى مجرد استعارات وثرثرة
كمن يزيف قدره
بدمع السلحفاة
متفادياً
شعباً
من النوافذ الماثلة للشقاء
ولا اتحدث هنا
عن الرماد الشهير
فبعض الشعراء
هذه الايام
يصنعون منه حواة وافاعي
لتسلية كهنة الكوارث والحروب
لكنني كلما بسطت قلبي لاناهيد
اصابت حنجرتي بالصمت المجنون
فالسهو هو نقطة ضعفي الحاسمة
التي مررتها الطبيعة على ياسي الذي
ما انفك يستفهم النظرات
وها انا ارعاها
بين اشلاء منزلي المحترق هناك

ايمكنني
اذن
بعد كل هذا الجحيم
ان اتنفس عطر طيور تحلمني شريداً
ام ادعي
إن كلماتي
مجرد توابيت صراخ عاطل تتسكع في
دار السلام

تجليات البنية الواقعية
في رواية (المسرات والأوجاع) لفؤاد التكرلي

محمد درويش علي

يمثل القاص والروائي فؤاد التكرلي صوتاً متفرداً في مجمل المسار التاريخي والفني سواء في تجارب القصة القصيرة أم في حقل الرواية في العراق. وهو من بين المبدعين الذين اتسمت جهودهم بالريادة واقترنت باستلهام خصائص الحداثة وترسيخ الاساليب الفنية الحديثة. ويتجلى ذلك بوضوح في روايته المتفردة (الرجع البعيد) وتقنيتها في توظيف (البوليفونية) أي تعدد الاصوات داخل البنية السردية، واستخدام تقنيات الاختزال والتقطيع والتكثيف والترميز في مجموعته المتميزة (الوجه الآخر) مروراً برواية (خاتم الرمل) واخيراً روايته الموسومة (المسرات والاوجاع) الصادرة عن دار المدى.

وعلى الرغم من توجهات التنويع الاسلوبي وتأثيرات الادب العالمي فأعماله لم تفقد خصوصيتها وفرادتها ومحليتها الصادقة. ظلت انتقالاته مشدودة إلى الهاجس الواقعي المؤطر بملامح إنسانية وشغفه بمحلية الأمكنة الشعبية. وتمثل المسرات والأوجاع امتداداً لتوغله في المزاوجة بين الهم الانساني وبين المراحل التاريخية التي يتصدى لها ويجعلها خلفية لأبطاله والوقائع والاحداث التي يصورها.

وتجسد هذه الرواية مرحلة مهمة من تاريخ العراق وقد تبدو متسعة في استشراف منحى زمني وتاريخي طويل ومتشابك، لكنها ليست فضفاضة. فتوظف الاستطراد واسلوب كتابة المذكرات والانتقال من شخصية إلى شخصية ومن جيل إلى آخر وتعددية الامكنة وتنوع جذور وموجهات الصراع كلها بدت منسجمة تحيل بعضها إلى بعض ضمن بنية سردية هيمنت عليها تجليات الواقع الذي بدا (اكثر واقعية من الواقع نفسه) على حد تعبير أحد النقاد الروس حين وصف رائعة تشيخوف (الشقاء).

والواقع عند فؤاد التكرلي لم يتحول إلى الاستنساخ الفوتوغرافي، أو الميل إلى خواص المذهب الطبيعي وانشداده إلى الشرط الحياتي والطبيعي والوجودي كما نجد ذلك في روايات ستندال وأميل زولا وعلى وجه التحديد في روايته (الارض).

واستطاعت رواية (المسرات والأوجاع) تجاوز هذه الاشكالية باتجاه تعرية الواقع من خلال تقديمه بواقعيته اليومية بكل تفاصيلها الاجتماعية والسياسية والنفسية، أي إن واقعية الرواية لم تنشد الواقع لذاته بل تجاوزت ذلك في اطار تحسسها النقدي والكشف عن الاختلال والسلبيات والاحباطات اليومية التي تحاصر الابطال وتجعلهم يعانون من سأم وجودي إلى تهميش وعدمية.

ويتواتر هذا التحسس ليفضح ويعري الشروط الحياتية المقيتة التي تصدر الانكسار والخيبة واللاجدوى إلى الشخصيات والصراع المزدوج مع دواخلها مرة ومع تضاريس واحداثيات المحيط الذي يكتنفها. وهنا لا بد من التذكير بمقولة رولان بارت المعروفة من (إن الادب مهما اختلفت مدارسه هو دوماً واقعي بصفة قاطعة انه حقيقة الواقع واشعاعه). ويعمق روجيه غارودي هذا الفهم عندما يقول: أشق الأمور ليس دائماً، ان نحصل المعضلات، بل هو احياناً أن نطرحها. تبدأ تجليات البنية الواقعية في المسرات والاوجاع من موجه مكاني حيث تبدأ الأحداث في مدينة خانقين وتحديداً (دربونة الشوادي) التي يفيض بوصفها ووصف أهلها وطبيعة حياتهم الموزعة بين خصائص الريف وبين المدينة الحدودية وما تشهدها من تداخل الاجناس والمرجعيات السلوكية والعادات والتقاليد والتطلعات الطبقية. فالأب الاكبر (عبد المولى) وابناؤه واحفاده يعيشون صراعاً مع الواقع الاجتماعي والطبقي اليومي والذي يصل ذروته عند أحد الابناء (سور الدين) الذي يكسر الطوق المكاني ويتحرر منه باتجاه المركز - بغداد في منطقة الحيدر خانة حين يتزوج من ابنة مدير الكمرك ويجد ذلك صدى في نفسه ليكون قريباً من اخته الساكنة في المنطقة ذاتها. وبدا الثلث الاول من الرواية مشدوداً إلى تقريرية الواقع والاستغراق في وصفه وتثبيت وقائع التاريخ بصيغتها ومنعطفاتها السياسية، حتى إن الروائي يذكر الشهور والايام واحياناً الساعة بدقة شديدة. فيصف ولادة الشخصية التي سيتمركز السرد حولها بقوله (ولد توفيق إذن في الساعة الخامسة من فجر يوم الاحد الخامس عشر من حزيران ١٩٣٢..)

وتبدأ بعد ذلك سيرة توفيق التي هي عبارة عن اجترار الخيبات والمرارة منذ طفولته مروراً بوعيه السياسي الذي تشكل عبر الانتكاسات والتظاهرات ولاسيما في الاربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي. واستطاع الروائي من خلال تراكم ضياع توفيق ان يؤسس لهذه الشخصية ويجعلها تتدحرج إلى عدمية وجودية. فلم يوفق (توفيق) في حياته. لاحظ مفارقة الاسم - ولم يتزوج بل استغرقه اصدقاؤه اللاهون في بيت يقع في بارك السعدون، بعد أن اسفرت دراسته للحقوق عن وظيفة (ملاحظ) في احدى الوزارات وكانت والدته تدفع اليه الكثير من المساعدات المالية، ووجد نفسه إزاء اسرة تتناسل بسرعة. وكانت ملامح فشله تبدو في علاقته مع كميلة التي تنتمي إلى عائلة مدير الكمرك وبين (اديل) التي تعرف اليها واكتشف بذهول إنها زوجة صديقه سليم مروان.

ويستغرق الروائي في التعمق بسيرة توفيق ويلجأ أحياناً إلى اسلوب المذكرات الشخصية وتبقى هذه الشخصية خلاصة لتراكم خيبات الواقع وانكساراته فاستغرق في اللهو ولعبة البوكر وانعدام الجدوى بمعناها الوجودي وانهيار الشخصية يسير بالموازاة مع احداث الاربعينيات والخمسينيات صعوداً إلى السبعينيات والثمانينات وما شهدته تلك العقود من انكسارات وتراجعات كانت تنعكس على شخصيته بل هو بكل اندحاراته مثل المعادل الموضوعي لتداعيات المراحل التي مر بها وقد انتهت به الحياة إلى مصير بائس وغرفة جرداء يعاني الافلاس التام والضياع الاجتماعي الحاد، (ومهازل الزمن الدامي) على حد تعبيره في احد مونولوجاته الداخلية.

إن المسرات والاوجاع عمل روائي كبير بتجلياته ورؤاه وتفاصيله الواقعية والتاريخية وهو جدير بأكثر من وقفة تأملية وتحليلية لما يحمله من عمق وفن متقدم.